هأَنَذَا صَانِعٌ أَمْرًا جَدِيدًا. أَلاَ تَعْرِفُونَهُ؟ (إشعيا)

رياضة روحيّة لأخويّة شراكة وتحرّر

ريميني 27 نيسان 2018

تدوينات من مقدّمة خوليان كارّون

«هأَنَذَا صَانِعٌ أَمْرًا جَدِيدًا. أَلاَ تَعْرِفُونَهُ؟»[1] إنّ القدرة على ملاحظة الأشياء تنتمي إلى طبيعة الإنسان، فهي جزء من عظمته التي لا مثيل لها لدى أيّ مخلوق آخر. للأسف، يسود فينا في كثير من الحالات التسليم بمجرى الأمور أو السطحيّة. مَن بيننا، لدى رؤيتنا الوجوه التي رسمها كارافادجو، أثناء استماعنا إلى *Fac ut ardeat cor meum* من *Stabat Mater* دفوراك، لم يشعر بكلّ الرغبة في أن ينتشي كتلك الوجوه، التي غمرتها معرفة للمسيح اخترقتها حتّى الصميم؟ ولكن – نفكّر – كيف يمكننا، بهشاشتنا، التوصّل إلى معرفته؟ لهذا يقدّم لنا يسوع عزاءً كبيرًا: «أنتم بحاجةٍ للروح. والروح هو من يرشدكم إلى جميع الحقّ»[2]. فلنطلب إذن من الروح أن يقودنا إلى معرفةٍ للمسيح تكون حاضرة في الواقع، في التاريخ، وتجعل قلوبنا تضطرم.

هلمَّ أيّها الروحُ القدس

أبدأ بقراءة رسالة الترحيب التي أرسلها لنا الأبُ الأقدس: «بمناسبة الدورة السنويّة للرياضة الروحيّة لأعضاء أخويّة شراكة وتحرّر والتي تجري في ريميني بعنوان: "هأَنَذَا صَانِعٌ أَمْرًا جَدِيدًا. أَلاَ تَعْرِفُونَهُ؟"، يتقدّم قداسة البابا فرنسيس بعواطفه الودّيّة وتمنّياته بالنجاح. وهو يدعو إلى القيام بخبرة حيّة للمسيح الحاضر في الكنيسة وفي أحداث التاريخ، وتغيير حياتنا من أجل تجديد العالم بقوّة الإنجيل. إنّ التأمل بوجه يسوع الميت والقائم من بين الأموات هو ما يعيد تجميع إنسانيّتنا، حتى تلك التي يصدّعها إرهاق الحياة، أو التي تطبعها الخطيئة. ويأمل الأب الأقدس أن يشهد أولئك الذين يتبعون موهبة المونسينيور لويجي جوسّاني على محبّة الله الملموسة والقويّة، والتي تعمل بحقّ في التاريخ وتحدّد مصيره النهائيّ. وفي حين يسأل الصلاة من أجل دعم خدمته البطرسيّة، يستمطر حماية العذراء مريم السماويّة، ويمنحك وجميع المشاركين من كلّ قلبه البركة الرسوليّة التي التمستموها، شاملا بها أولئك المتواصلين معكم عبر الأقمار الصناعيّة وكامل الأخويّة. من الفاتيكان، 27 نيسان 2018، الكردينال بياترو بارولين، أمين سرّ الدولة لصاحب القداسة».

1. نتيجة الانزياح

منذ لقاء بداية العام وأنا أفكّر بجملة لدون جوسّاني ظلّت تنخزني: «في البداية كنّا نبني، كنّا نحاول البناء على شيء ما يحدث [...] استحوذ علينا. وعلى الرغم من سذاجة وعدم تناسب هذا الموقف بشكل صارخ، إلا أنّه كان موقفًا صافيًا. ولهذا، وبسبب تخلّينا عنه، كوننا تموضعنا في موقف كان

[1] سفر إشعيا 43، 19.

[2] راجع يوحنا 16، 13.

قبل كلّ شيء، أوشك أن أقول، "ترجمة ثقافيّة" بدلًا من الحماسة لحضور، فإنّنا لا نعرف – بالمعنى البيبليّ للمصطلح – المسيح، نحن لا نعرف سرّ الله، لأنّه ليس مألوفا بالنسبة لنا»[3].
لقد كان من تبعات الانتقال من الحماسة لحضور إلى ترجمةٍ ثقافية عدمَ معرفتنا المسيح. وعدمُ معرفتنا المسيح يمكننا أن نراها من حقيقة أنّه ليس مألوفا بالنسبة لنا.
يبدو لي أن ليس هناك من تحدٍّ أكبر من ذلك الذي ينطوي عليه هذا الاستفزاز: إن لم يصبح المسيح مألوفًا خلال مسيرتنا، فسيتناقص اهتمامنا به بشكل متزايد، وسوف يصبح كلُّ ما نقوم به نتيجة منفصلة أكثر فأكثر عن أصلها، كما هو الحال بالنسبة لغصن جافّ، تصيبنا بخيبة أمل متزايدة كلّ يوم، تترك لدينا المرارة.
لقد أتاح العملُ الذي أُنجز منذ يوم بداية العام لكلّ منّا أمكانيّة إدراك التقدّم الذي أحرزه في الأشهر الأخيرة. كيف نفهم ما إذا عرفنا المسيح أكثر؟ من خلال أيّة علامات يمكننا التحقّق من ذلك؟
لقد أعطانا دون جوسّاني معيارَ تحقّق من أجل أن نعرف ما إذا كان المسيح قد دخل حقًا أو هو يدخل أكثر فأكثر في حياتنا، وما إذا أصبح أكثر ألفة كلّ يوم. ولفهم ذلك، تكفي الإشارة إلى خبرة أوّليّة يقوم بها كلّ منا، فنحن نرى أنّ حضورًا ما، أو شخصًا ما، قد دخل حياتنا لدرجة أنّه يصبح مألوفًا عندما يحدّد طريقة مواجهة كلّ شيء، طريقة التعامل مع الأشياء والظروف. يكفي هنا أن تفكّروا بأطفالكم. على العكس من ذلك، عندما لا توجد هذه الألفة، أو إنّها لا توجد بما فيه الكفاية، فإنّ نقطة البداية تبقى كما كانت من قبل: انطباع معيّن عن الأشياء، والأنماط التي نحملها. يمكننا جميعًا التحقّق من صحّة ذلك.
ما يحدث مع المسيح ليس مختلفًا. إن لم يؤثّر حدث المسيح، في الواقع، على طريقة عيشي، على مثولي أمام الواقع، والأوضاع والتحدّيات اليوميّة، إن لم يحدّد حدث المسيح الحاضر الشكل الذي نعيش به الظروف، فهذا يعني أنّنا نواجهها كالآخرين، أي انطلاقًا من الانطباع الذي تثيره فينا، ومثل مثل غيرنا ينتهي بنا الأمر إلى الاختناق في حياة "تقطع أرجلنا".[4] والنتيجة واضحة على الفور: حياة تسيطر عليها "انطباعاتنا" – فليفكّر كلّ منّا كيف يستيقظ بعض الأحيان – بدلا من زيادة الحماسة للمسيح، وتجعل من الإيمان غير ذي أهمّيّة للعيش على نحو متزايد، لأنّنا لا نرى علاقة المسيح بمتطلّبات الحياة.
ولكن إذا لم تزدد الحماسة للمسيح أكثر فأكثر، فأين نسعى إلى كمالنا؟ يمكن لكلّ منّا أن ينظر إلى حياته الخاصّة ويلاحظ ما الذي يطغى فيها. وبما أنّ قلبنا لا يمكنه أن يتوقّف عن الرغبة، فإنّنا سنسعى حتمًا لتحقيق كمال ما نقوم به نحن، في « جهد نشاطنا الحركيّ والعمليّ والخيريّ والثقافيّ والاجتماعيّ والسياسيّ»[5]، أو في مسعانا المهنيّ. وهكذا يصبح الإيمان مجرّد "مقدّمة" نتركها وراءنا. لهذا السبب كان دون جوسّاني يقول لنا إنّ «الخطأ الأساسيّ الذي يمكننا أن نرتكبه [...] هو أن نعتبر الإيمان أمرًا مسلّمًا به. وهذا يعني: بعد التسليم بالإيمان، نقوم الآن بأنشطة ثقافيّة»[6]. لا يعطينا دون جوسّاني مجالا لالتقاط أنفاسنا في هذا التذكير: «إذا كان كلّ ما ننتظره لا يُستنفد تمامًا في ما أُعطينا إيّاه، في حقيقة أنّه قد أُعطي لنا»، أي في حقيقة المسيح، فإنّ كلّ أنشطتنا، كلّ ما نقوم به «يصبح انتظارًا لملكوتنا».[7]
إنّ السؤال الذي يطرح نفسه حتمًا هو التالي: وهل هذه الأنشطة قادرة على جعلنا كاملين؟ جرس الإنذار هو ذلك الشعور بعدم الارتياح الذي يهاجمنا بسبب "عملٍ" لا يرضينا في النهاية.

[3] L. Giussani, *Una strana compagnia*, Bur, Milano 2017, pp. 88-89.
[4] C. Pavese, *Dialoghi con Leucò*, Einaudi, Torino 1947, p. 166.
[5] L. Giussani, *Una strana compagnia*, op. cit., p. 88.
[6] L. Giussani, *Dall'utopia alla presenza (1975-1978)*, Bur, Milano 2006, p. 173.
[7] L. Giussani in A. Savorana, *Vita di don Giussani*, Bur, Milano 2013, p. 392.

لكنّ عدم الرضا الذي نشعر به عندما نتوقع تحقيق الكمال ممّا نفعله يمكنه أن يصبح – إذا حافظنا على بساطة القلب – فرصة ومناسبة لنشعر بداخلنا بالحاجة الملحّة للعودة إلى البداية، إلى تلك الحماسة للمسيح التي استحوذت علينا.
كتب لي طبيب شابّ بخصوص حقيقة أنّ «الحاجة الملحّة للعودة إلى البداية»، إلى الحماسة للمسيح، إنّما تخصّ حياة كلّ واحد منا، بغضّ النظر عن عمره أو تجربته (قد يكون تعرّف إلى الحركة قبل سنة وعمره أقلّ من ثلاثين سنة) فقال:

«عزيزي خوليان، لقد بدأت أفهم في الأشهر الأخيرة ما قلتَه لنا مرّاتٍ عديدة، حول إن لم أتحقّق من علاقة الإيمان بمتطلّبات الحياة، فإنّ الحياة لا يمكنها أن تقاوم، والعلامة الأولى هي حالة شكوكيّةٍ – غير صريحة – أشبه بشكٍّ، بعدم إيمان حول حقيقة أنّ بعض الأشياء، بعض متاعب الحياة، يمكن المسيح أن يغمرها ويغيّرها. لقد حدث لي هذا في العمل. فأنا طبيب متخصّص في قسم ترتفع فيه وتيرة العمل، وتتوالى المنافسة والشكوى، في حين أنّ معظم الزملاء ليس لديهم أيّ شيء تقريبًا خارج العمل. في هذين العامين، وفي محاولة منّي للقيام بعملي بشكل جيّد، تركت نفسي أنساق به. وبعد خيبتي أمل كبيرتين في العمل، أدركتُ كم أنّ العمل – على الأقلّ من خلال عيشي له – ليس قادرًا من حيث الرضا على إعطائي حتى الجزء اليسير ممّا أعطيه أنا له، وهذه محصّلة سلبيّة على الإطلاق. لقد دفعتني هذه الحقيقة أيضًا إلى التفكير في أنّ العمل يسلبني من الوقت الذي أخصّصه لزوجتي وأصدقائي فازدادت شكواي! إنّ قراءة في مدرسة الجماعة، والذهاب إلى القدّاس، والتحدّث مع الأصدقاء – طالما أنّ المرء ليس على استعداد لتغيير وجهة نظره، لكنّه يريد فقط حلا لمشكلةٍ آنيّة – تبدو كلّها محاولات فاشلة، وتترك شكوكًا متزايدة حول قدرة المسيح على تغيير شيء بالنسبة إلى العلاقة بالعمل. وأخيرًا، حدث أمر ما. فمنذ شهرين تقريبًا أذهب أحيانًا إلى القدّاس قبل العمل. وهناك مجموعة من الحركة تذهب كلّ صباح، وفي نهاية القداس يحتسي الجميع القهوة سريعًا في المقهى المقابل للكنيسة: إنّه أمر تافه ومعتاد بالنسبة لهم. في صباح اليوم الأول لانضمامي إليهم كنت سعيدًا، وتوجّهت إلى عملي على متن درّاجتي الناريّة – وهي عادةً اللحظة التي أشعر فيها بالقلق من كلّ ما يجب أن أفعله وكافة الالتزامات التي يتعيّن عليّ أن ألحظها – بخفّة من رأى لتوّه شيئًا جميلًا. بينما كنت في معظم فترات الاستراحة أفكّر في ما ينبغي عليّ القيام به بعدها، في تلك الدقائق العشر كان أفراد المجموعة موجودين، منتبهين، حاضرين. لقد أدهشني أيضًا اهتمامهم بي، حيث لم أكن أعرفهم، وكذلك اهتمامهم ببعض المشرّدين المتجوّلين أمام الكنيسة. لقد أدركت سلسلة من المعطيات التي دفعتني إلى التساؤل عمّا إذا كان من المستحيل بالنسبة لي أن أكون سعيدًا في عملي. لقد أحدثتْ حقيقة صغيرة فتحة في شكواي: سؤالٌ يدفعك إلى القيام بمسيرة. فخلال اجتماع معك ومع بعض العمّال الشباب، رأيتُ حدوث نفس ديناميّة المقهى، فقد أذهلتني حرّيّتك أمامنا، وعدم امتلاكك شيئًا تدافع عنه، بل والفضول لما قد يصدر عنّا. لقد أربكتني الأحكام التي قدّمتَها، والتي غالبًا ما كشفت القناع عن الرؤية المختصرة التي لدينا حول الواقع. أنا أفهم أنّ نظرة حرّة كهذه لا يمكن أن تكون نتاج ثقافة أكثر كمالا وانتباهًا لكتابات جوسّاني، ولا نتاج مشاركة في عددٍ أكبر من البادرات والتجمّعات، بل نتاج ألفة مع السرّ فقط. لهذا السبب رحت أنظر إليك بفضول وحسد، وكنت أتساءل باستمرار لماذا كنت تجيب على الاستفزازات المختلفة بطريقة مختلفة عمّا كنت سأفعله أنا. شعرت بتوتّر في التماهي معك، في محاولة فهمي كيف تنظر إلى الأشياء. لقد كان الأمر لطيفًا لأنّ الأمر بالنسبة لي كان في البداية على هذا النحو: تماهٍ شبه تلقائيّ نشأ من الذهول أمام غيريّة بشريّة».

انتبهوا، لاستعادة حماسة البداية لا تكفي الذكرى، لا يكفي اللقاء بالأصدقاء لتذكّر الزمن الماضي. فتذكّر شيء مضى لا يُعيد لنا البداية. إنّ تذكّر أوقات الخطوبة الجميلة لا يُعيد للزوجين الحماس

الضائع في السنوات التالية. أتريدون دليلا ثابتًا على ذلك؟ انظروا إلى الشكوك التي تنساب إلى حياة الكثيرين من البالغين. والامكانيّة الوحيدة هي أن يحدث الآن مرّة أخرى ما ألهبنا في البداية.
لقد عبّر دون جوسّاني عن أيٍّ محاولة أخرى لاستعادة البداية بشكل قاطع: «لنفترض أنّ أناسًا اجتمعوا اليوم [...] مدفوعين بذكرى رائعة لحدثٍ أذهلهم – أو أفادهم ورفع من مستوى حياتهم – يريدون استعادته، وملء "انقطاع" نشأ على مرّ السنين. [...] فإذا قالوا، على سبيل المثال: "دعونا نجتمع معًا لدراسة التعليم المسيحيّ، أو لتطوير مبادرة سياسيّة جديدة، أو حتى لدعم نشاط خيريّ، وإنشاء مؤسّسة، وما إلى ذلك"، فإنّ أيًّا من هذه الإجابات ستكون كافية لملأ الانقطاع». ما من شيء أكثر وضوحًا من هذا: «إنّ الاستمرارية مع "ما كان" تنشأ من جديد فقط عند تكرار الحدث نفسه، والوقع نفسه الآن»[8]. لأنّ البداية حدثٌ، دائمًا. ومن أجل ملأ الانقطاع مع البداية، من الضروريّ أن يحدث الآن مرّة أخرى ما حدث حينئذ، يجب أن يحدث نفس الحدث الذي حرّكنا في البداية.
هذا ما ذكّرنا به البابا فرنسيس في ساحة القدّيس بطرس: «لا يتمّ الحفاظ على الكاريزما داخل زجاجة من الماء المقطّر! [...] لا يمكن أن يتم اختزال دون جوسّاني بمتحف من الذكريات [...]. الولاء للتقاليد – يقول ماهلر – يعني الحفاظ على اضطرام الشعلة»[9].
وحدها إعادة حدث حضور المسيح الآن يمكنها أن تستعيد لنا البداية. فالمسيح هو حدث حاضر.
والأمل الوحيد بالنسبة لنا هو معرفة المسيح أكثر، إن كنّا لا نريد أن نفقد الحماسة التي استحوذت علينا. لهذا السبب، ومنذ لقاء بداية العام، ظلّت هذه العبارة تنخزني.

2. في صيرورتنا كبارًا، تغييب الأخلاقيّة

كان دون جوسّاني يقول لنا في أولى رياضات الأخويّة بالضبط إنّ عدوّنا هو «غياب معرفة المسيح». ولكن أيّ نوع من المعرفة هو؟ بما أنّ المعرفة عادةً ما تنحصر بالنسبة إلينا بالمعرفة النظريّة، فإنّ جوسّاني ينبّهنا من أنّه يتحدّث عن المعرفة حسب معناها الوارد في الكتاب المقدّس: «المعرفة كألفة، كانسجام، كتماهٍ، كحضور في القلب». لذلك يلاحظ في وقت لاحق قائلا: «يبدو الأمر كما لو أنّ الألفة التي شعرنا بها [بعد الاجتماع] لم تعد موجودة [...]. فهناك عائقٌ هو بُعدٌ عن المسيح، أشبه بعدم وجودٍ للمسيح، بشيء لا يحسمه القلب. ليس الأمر كذلك في الأفعال، ففيها يمكنه أن يكون حاسمًا – نذهب إلى الكنيسة، وننشط في الحركة، ربّما نتلو صلاة الليل، ونتابع مدرسة الجماعة، ونجهد بالعمل الخيريّ، ونذهب إلى تأسيس مجموعات هنا وهناك، وننطلق ونتسلل أيضًا إلى السياسة. إنّه لا ينقص في الأعمال: [...] ولكن في القلب؟ في القلب، لا! لأن القلب يشبه نظرة المرء إلى أطفاله، كما ينظر المرء إلى زوجته أو المرأة إلى زوجها، كما ينظر المرء إلى المارّة، كما ينظر المرء إلى أعضاء الجماعة أو زملاء العمل، أو – وخاصّة – كما يستيقظ المرء في الصباح»[10].

ليس هذا فحسب. فبُعد المسيح عن القلب «يشرح بُعدًا آخر أيضًا، يظهر أيضًا في عائق في العلاقات بيننا، في النظرة بيننا، لأنّ المسيح وحده [...] هو من يمكنه أن يجعلنا أشقاء حقًا»[11]، يا أصدقاء! كم من المرّات تحدّثنا عن ذلك واختبرناه في حياتنا: إنّ بُعد قلب المسيح يصبح بُعدًا عن بعضنا البعض، بحيث أنّ غرابة متبادلة تسيطر في ما بيننا.

---

[8] L. Giussani, «Qualcosa che viene prima», in *Dalla fede il metodo*, *Tracce-Quaderni 2*, suppl. a *Tracce-Litterae Communionis*, aprile 1994, pp. 42-43.
[9] Francesco, *Discorso al movimento di Comunione e Liberazione*, 7 marzo 2015.
[10] L. Giussani, *Una strana compagnia*, op. cit., pp. 22-24.
[11] L. Giussani, *Una strana compagnia*, op. cit., p. 24.

فيسوع يمكنه أن يكون بعيدًا كلّ البُعد عن قلبنا لدرجة أنّه يصبح أشبه بالغريب بالنسبة لنا: «لو جاء يسوع إلى هنا في صمت – *softly* – وجلس على كرسيّ هناك، بالقرب من تلك السيّدة، وانتبهنا كلّنا ذلك في وقتٍ ما، فإنّني لا أدري كم منّا ستكون دهشتهم وامتنانهم وفرحهم ... لا أدري كم شخصًا ستكون مودّته عفويّة حقًا، مع حفاظه على وعي ذاتيّ معيّن. [...] لا أدري ما إذا كنّا لن نشعر بغشاء من الخجل والعار [...]، إذا أدركنا في تلك اللحظة أنّنا لم نقل أبدًا "أنتَ" [...]، إذا حاولنا أن نعيش بشكل جادّ الغرق غير الكامل لأناه الذاتيّة في أنانا الجماعيّة»[12]. دعونا نسأل أنفسنا: من منّا اليوم قال "أنت" للمسيح، بتلك الألفة التي يعامل بها الوجوه العزيزة عليه حقًا؟

لا أعني أنّ المسيح ليس معروفًا في حياتنا، فلنكن واضحين. «من المفارقة– أصرّ – [يتابع دون جوسّاني] أنّ المسيح هو بالتحديد السببُ الذي يدفعنا إلى عيش طريقة حياة لم نكن لنعيشها من دونه، ومع ذلك فهو بعيدٌ عن قلبنا!» ففي صيرورتنا كبارًا، بالغين، وعلى الرغم من قيامنا بأشياء كثيرة للحركة أو باسم الحركة، بقي المسيح بعيدًا عن قلبنا، وربّما لم يدخل بَعدُ إلى قلبنا. «أنا لا أحسب [يواصل دون جوسّاني] أنّها سمة طبيعيّة إحصائيًا أنّ صيرورتنا كبارًا قد جعلت المسيح أكثر ألفة لنا، قد جعل حضورًا أكبر ذلك الغيابُ العظيم [...]. لا أعتقد ذلك»[13].

وماذا يحدث إن لم تجعل صيرورتنا كبارًا المسيح أكثر ألفة؟ يحلّ فينا شعورٌ بالإحباط، «لا بالمعنى العاديّ للكلمة، بل مقارنة بتلك الألفة مع الله التي يكمن فيها جوهر حياة الإنسان»[14]. لذلك، إذا كانت الـ moralità الأخلاقيّة «توقًا إلى شيء أعظم منّا، فإنّ الـ demoralizzazione تعني تغييب هذا التوق. أنا أصرّ على أنّ ذلك التوق يستيقظ في الكلام وفي الأعمال أيضًا – وذلك ليس زورًا، بل بصدق أيضًا – ، لكنّه ليس في نهاية المطاف داخل القلب. لأنّ ما هو في نهاية المطاف في القلب [...] لا ساعات ولا شروط تمنعه [...]. وكما لا يمكن للأنا تعليق عيشها، كذلك عندما يكون القلب أخلاقيّا، عندما لا يتخلّى القلب عن أخلاقيّته، يبدو التوق "للأكثر"، لما هو إضافيّ، كما لو أنّه لا ينقص". ليست هناك من مهلة، يا أصدقائي، لأنّنا هنا بصدد الحديث عن القلب، وليس عن الأعمال. "إنّما تكمن المشكلة في قلوبنا»[15].

كيف بإمكاننا مقاومة هذا التغييب للأخلاقيّة؟ عند هذه النقطة، يجدّد دون جوسّاني التأكيد على قيمة الصداقة بيننا، على رفقتنا، على أخويّتنا، موضحًا مهمّتها: «يجب على رفقتنا أولًا أن تجعلنا نقاوم هذا التغييب للأخلاقيّة. فهي ستكون الأداة الرئيسيّة ضدّ تغييب الأخلاقيّة»[16].

ولكن كيف يمكنها أن تساعدنا في هذا النضال، بشكل يسمح للمسيح باختراق قلوبنا؟ نحن نرى ذلك بوضوح عند حدوثه.

«عزيزي الأب خوليان، إنّي عائدة لتوّي من "درب الصليب" الذي أقيم الليلة الماضية في كارافاجو، بعد سنوات من نسياني الكليّ للجمعة العظيمة. فطالما احتججت بأنّ عندي عمل، ولذلك تجاوزت بهدوء هذه المناسبة دون أدنى شكّ. لم أشعر حقا بالحاجة إليها. أمّا هذا العام، ولسببٍ ما أجهله، فقد وجدت الوقت وأدركت أنّ المسألة هي عمّا يرتكز قلبي. كان الأمر أشبه بالعودة إلى أصل كلّ شيء. وفي زمن ثلاثيّة الفصح التي كان يقوم بها الطلبة الجامعيّون مع دون جوسّاني في كارافاجو كانت من بين الأشياء التي ألهبتني وأنا في العشرين من عمري. و "طرحني أرضًا" بالأمس أيضًا، ولكن بألم شديد، الاستماع إلى الجوقة وهي تنشد *Cristo al morir tendea* وسؤال مريم الأليم: "أستتركونه لأجل حبّ آخر؟". لقد أدهشني لأنّه لا يقول: إلى الخطيئة أو إلى الشرّ، بل "لأجل حبّ آخر".

[12] L. Giussani, *L'attrattiva Gesù*, Bur, Milano 1999, p. 151.
[13] L. Giussani, *Una strana compagnia*, op. cit., pp. 24-25.
[14] L. Giussani, *Una strana compagnia*, op. cit., p. 30.
[15] L. Giussani, *Una strana compagnia*, op. cit., pp. 25-26.
[16] L. Giussani, *Una strana compagnia*, op. cit., p. 26.

طرحت هذا الصباح على نفسي أسئلة لم أكن أطرحها منذ عقود أو ربّما لم أقم بطرحها أبدًا. تساءلت عن سبب اقتراح الكنيسة أسبوع الآلام كلّ عام. كم مرّة نقضي هذا الزمن كبادرة لا تغيّر شيئًا فينا، في حياتنا، طالما أنّنا "ندري به" ولا شيء لدينا نقومّه! فننتظر أن يمرّ بسرعة للعودة إلى اهتمامنا بالأمور الملموسة: العمل، يوم قبض المعاش الشهريّ، الزوج، الأطفال، المنزل، السيارة، حفلات أعياد الميلاد، مجموعات الأخويّة (ولكن فيمَ نحن إخوة؟)، عطلات الحركة أو على البحر مع الأصدقاء. وبدلًا من ذلك، تكسر الكنيسة، بما للكلمة من معنى، تكسر الوقت، فتعيد فتح ذلك الجرح الذي هو إنسانيّتي. لأنّك أنت، أكنت صديقا، أو زوجًا، أو زوجة، أو ابنًا أو كلّ حركة من حركات قلبي، أنت، يا من أعتبره كلّ شيء بالنسبة لي، لن تعيش إلى الأبد وستخونني وسأخونك وأخون نفسي. أنت، يا من أحبّه بعمق، غير قادر على الوفاء بالوعد الذي أثرته فيّ. فأين أعقد إذن الأمل الذي لا يكفّ القلب عن طلبه؟ هذا ما تقترحه الكنيسة علينا كلّ عام: أن نعيد فتح جروح كلّ يوم، ومن أربعاء الرماد، أن نعترف بأنّنا بحاجة إلى كلّ شيء، لنعود إلى الموقف الأصحّ، التسوّل. فالإجابة لا تعطى لنا ، لكنّها تفرض نفسها على قلب متسوّل، ويركض، في فجر جديد، في اليوم الثالث».

ها هي مهمّة رفقتنا. إن كان أقلّ من هذا فلا يستحقّ البقاء فيها. يصرّ دون جوسّاني فيقول «يجب أن تذهب رفقتنا إلى ما هو أعمق وأعمق، ويجب أن تهمّ أنفسنا، يجب أن تهمّ قلبنا»[17]، يجب أن تقدّم لنا – كما تقول مدرسة الجماعة – أن تدفعنا إلى«علاقة عميقة وشخصيّة معه»[18]، مع المسيح.
ولكن عند هذا المستوى، يوضح جوسّاني، على مستوى اعترافي بك، أيّها المسيح، أي على مستوى القلب، لا يمكن لأحدٍ أن يفوّض إلى غيره إجابة لا يمكن إلا أن تكون صادرة عنه هو: «إنّها مسؤوليّة [كما تدلّ الرسالة التي قرأناها لتوّنا] [...]،لا يمكن تحميلها للحركة. فالقلب هو الشيء الوحيد الذي يبدو وكأن ليس فيه شركاء [...]. إذا كنت في فريق يلعب فيه كلّ فرد دورًا، فإنّ كلّ شخص يدفع الآخر، وكذلك الأمر بالنسبة للحركة، في أنشطة الحركة. أمّا هنا فلا! لذلك لا بدّ من أنّ حركتنا حركة غريبة: إنّها حركة لا يمكن تحميلها أيّ شيء»[19].

3. المسيح، الأمل في تحقيقه

لماذا يصرّ جوسّاني كثيرًا على الحاجة لأن يخترق المسيحُ قلبنا؟ السبب بسيط: بدون المسيح، يبقى القلب غير راض. وتبيّن لنا التجربة أنّ القلب لا يستطيع الغشّ، لأنّه موضوعيّ ومعصوم. وكما يذكّرنا الفصل الأول من الحسّ الدينيّ، إنّ القلب، كمعيار للحكم، هو موضوعيّ، فالمتطلّبات الأصليّة، في الواقع، نجدها معنا، ولا يمكننا التلاعب بها، وهي أعطيت لنا مع الحياة نفسها. لهذا السبب فإنّ القلب معصوم كمعيار: المتطلّبات الأوّليّة معصومة، لدرجة أنّها تكشف باستمرار الاختزالات والصور التي نبنيها حول ما ينبغي أن يروي عطش القلب؛ إنّ الشعور بعدم الرضا الذي نختبره في مواجهة الفوضى الشخصيّة أو العائليّة، وكذلك في مواجهة النجاح المهنيّ، لهو علامة واضحة على ذلك.
في هذا الإصرار من جانب جوسّاني يمكننا أن نجد كلّ تقديره تجاهنا، وشغفه بكلّ واحد منّا. إنّه حقًا تجسيد لرفقة حقيقيّة، رفقة مَن لا يكفّ أبدًا عن دعوتنا إلى الشيء الوحيد الذي يمكن أن يرضي القلب. فـ «غياب المسيح يدمّر ويُحبط، ويضع الإنسان في شكل ثابت من الاكتئاب. أنّ إمكانيّة أقلّ لحضورك، أيّها المسيح، تعني إنسانيّة أقلّ لقلبي ولقلبك. إمكانيّة أقلّ لحضورك، أيّها المسيح، تعني

[17] L. Giussani, *Una strana compagnia*, op. cit., pp. 26-27.
[18] L. Giussani, *Perché la Chiesa*, Rizzoli, Milano 2014, p. 246.
[19] L. Giussani, *Una strana compagnia*, op. cit., p. 27.

إنسانيّة أقلّ في علاقة الرجل بزوجته، والمرأة بأولادها، ما ينتج عنه تمديد يحلّ محلّ العاطفة الحقيقيّة، محلّ الحبّ الحقيقيّ، وعمل الخير، ومجّانيّة وهب الذات، ألا وهو الادّعاء [...].إمكانيّة أقلّ لحضورك، أيّها المسيح، تعني فرصة أقلّ من الإنسانيّة لجميع الناس [...] الذين يتجمّعون حولك»[20]، ولنا.

ما هو عكس تغييب القلب لأخلاقيّته وعكس الاكتئاب البشريّ، اللذين يبدو أنهما يميّزان صيرورتنا كبارًا؟ إنّ «عكس تغييب الأخلاقيّة»، وهو ما نحتاجه جميعًا، «هو الأمل». وهذا ما شهدت به صديقتنا أيضًا. إنّ ما يخبرنا به دون جوسّاني يتحقّق منه بشكل مدهش أيُّ شخص يقوم بخبرة إنسانيّة حقيقيّة، ويكون مخلصًا لما يحدث في حياته. ولكن أيّ أمل؟ عن أيّ أمل نتكلّم؟ عن الأمل في مصيرنا، في كمالنا. ولكن كيف يكون ذلك، مع كلّ الأخطاء والفشل والتناقضات التي تتكرّر وتتضاعف وتتراكم؟ «فقط حيث تحدّث الله إلى الإنسان يوجد هذا الأمل»، فمضمون هذا الأمل هو في الواقع ما «قاله الملاك للعذراء: "لا شيء مستحيل عند الله". أعتقد أنّ هذا كلّ شيء. فالإنسان الجديد الذي جاء المسيح إلى صنعه في العالم هو الإنسان الذي يشكّل هذا التأكيد بالنسبة إليه قلبَ الحياة فيه: "لا شيء مستحيل عند الله". حيث الله ليس "إله" أفكارنا، بل هو الإله الحقيقيّ، الإله الحيّ، الذي أصبح إنسانًا، المسيح»[21].

يذكّرنا الكتاب المقدّس: «ها إنّي أنا الربّ، إله كلّ ذي جسدٍ؛ أعليّ أمرٌ عسير؟»[22] «"لا شيء مستحيل عند الله"! هذه العبارة إذن هي في بداية التاريخ الحقيقيّ للبشريّة، وهي في بدايات النبوّة العظيمة لشعب إسرائيل، وهي في بداية تاريخ الشعب الجديد، العالم الجديد، في بشارة الملاك للعذراء، وهو في بداية زهد الإنسان الجديد، وفي بداية منظور الإنسان الجديد وتحرّكه. [...] أمام جملة المسيح: "من الأسهل على الجمل أن يمرّ عبر ثقب الإبرة، من أن يدخل غنيّ ملكوت السماوات"، قال الرسل،: "ولكن من يستطيع أن يدخل ملكوت السماوات؟ من يمكنه أن يخلص؟ لقد كانوا شديدي الفقر، والأشياء القليلة التي يملكونها كانوا قد تركوها. أجاب يسوع: "إنّه مستحيل بالنسبة لكم، ولكن عند الله لا شيء بمستحيل"»[23].

هذا هو أساس الأمل، وأساس إمكانيّة التخلّص من تغييب الأخلاقيّة، ونقص توق القلب نحو ما صُنع من أجله: الله أصبح إنسانًا، المسيحَ. «لقد دخل إنسان جديد العالم، ودخل معه طريق جديد»[24]: لقد أصبح المستحيل ممكنا. هذا ما يشير إليه منشور عيد الفصح على نحو مؤثر: «منذ اليوم الذي هرع فيه بطرس ويوحنا إلى القبر الفارغ ورأوه بعدها قائمًا من الموت وحيًّا وسطهما، بإمكان أيّ شيء أن يتغيّر. مذّاك وإلى الأبد يمكن للإنسان أن يتغيّر، أن يحيا، أن يعود إلى الحياة. إنّ حضور يسوع الناصريّ أشبه باللمف الذي يُعيد النضارة – بشكل غامض ولكن أكيد – إلى قحولتنا ويجعل المستحيل ممكنًا.، فما هو مستحيل لدينا ليس مستحيلا عند الله. وهكذا فإنّ من له عينٌ وقلبٌ صادقان يمكنه أن يرى بشائر إنسانيّةٍ جديدة من خلال رفقة أولئك الذين يعترفون بحضوره، بالله معنا. بشائر إنسانيّةٍ، جديدة، أشبه بعودة النضارة إلى الطبيعة المُرّة القاحلة»[25].

أيّها الأصدقاء، يجب أن نسأل الروح القدس عن بساطة الاعتراف بالمسيح، وبساطة «رفعِ نظرنا من ذواتنا إلى ذلك الحضور»[26] الذي جاء لملاقاتنا، وتركه يخترق قلوبنا، مثل فجر يوم جديد.

---

[20] L. Giussani, *Si può vivere così*. Esercizi Spirituali della Fraternità di Comunione e Liberazione, Rimini 28-30 aprile 1995, suppl. a *Litterae Communionis-Tracce*, n. 6, 1995, p. 22.

[21] L. Giussani, *Una strana compagnia*, op. cit., p. 28.

[22] سفر إرميا 32، 27.

[23] L. Giussani, *Una strana compagnia*, op. cit., p. 29.

[24] L. Giussani, *Una strana compagnia*, op. cit., p. 34.

[25] لويجي جوساني، شراكة وتحرّر، منشور عيد الفصح لعام 2018.

[26] L. Giussani, *Una strana compagnia*, op. cit., p. 35.

إنّ ما نحتاجه هو مجرّد بساطة. «كلّ شيء يعود إلى امتلاك قلب طفل». ماذا يعني هذا؟ «رفع نظرنا عن مشكلاتنا، عن مشاريعنا، عن عيوبنا وعن عيوب الآخرين، كي ننظر إلى المسيح القائم. "رفع النظر إلى هذا الحضور". يبدو الأمر كما لو أنّ ريحًا ستمرّ وتنتزع منّا كلّ ما نحن عليه؛ وعندها يصبح القلب أو يصبح من جديد حرًا، ويستمرّ في العيش في الجسد، أي إنّه يخطئ كما كان من قبل [...]، ولكن يبدو وكأنّ شيئًا آخر قد دخل العالم. دخل إنسان جديد إلى العالم، ودخل معه طريق جديد. "ها إنّ طريقًا فُتح في الصحراء: ألا ترونها؟" في صحراء العالم تنفتح طريق، أي تنفتح إمكانيّة القيام بـ "أعمال"، ولكن قبل كلّ شيء القيام بعمل محدّد. فـ"الأعمال" تعبير عن الإنسان؛ أمّا "العمل" فهو إنسان جديد، رفقة إنسانيّة جديدة»[27].

لا توجد إمكانيّة أخرى لاستعادة حماسة البداية التي ربّما نكون فقدناها خلال عيشنا: «بدون هذه البساطة، بدون هذا الفقر، من دون قدرتنا على رفع نظرنا من أنفسنا إلى ذلك الحضور، من المستحيل قيام رفقة تنفض عنها ذلك العائق، [...] وتصبح حقّا عونًا في المسيرة نحو المصير [...]. من الضروريّ أن أرفع نظري من نفسي إلى ذلك الحضور، إلى حضور المسيح القائم من بين الأموات»[28]. إنّ رفع نظرنا من أنفسنا لتحويله إلى حضوره هو الفرصة الوحيدة لنعيش حياتنا من خلال كسبها ولإنقاذ الرفقة، متغلّبين على العائق الموجود بيننا الذي تحدّث عنه دون جوسّاني. وحده المسيح قادرٌ على الاستجابة للانتظار الذي جلبنا إلى هنا، كما يكتب أحدكم: «أنا في انتظار الرياضة كما لم يحدث لي في حياتي!»، على حدّ تعبير إحدى الرسائل العديدة التي وصلتنا، محمّلة بهذا الانتظار.

في ذروة أزمة عام 1968، قال جوسّاني لأصدقائه بمركز شارل بيغي: «من الضروريّ أن تنتهي فترة وتبدأ أخرى: فترة نهائيّة، ناضجة، فترة يمكنها أن تتلقّى صدمة الزمن، بل صدمة التاريخ كلّه، لأنّ تلك البشارة التي بدأت بصدم شخصين (الفصل الأوّل من القدّيس يوحنا)، يوحنا وأندراوس، قبل ألفي سنة، تلك البشارة، ذلك الشخص هو نفس الظاهرة التي جذبتنا إلى هنا وهي الظاهرة التي يمكنها أن تجعلنا نبقى في كنيسة الله»[29].

فلنطلب من المسيح أن يجعل قلوبنا تهتزّ من المودّة له في هذه الأيّام، فهذه هي الإمكانيّة الوحيدة لمعرفته حقّا، بطريقة لا تكون نظريّة أو فكريّة. دعونا نتماهى مع الدعاء الذي استعاره دون جوسّاني من الـ *Stabat Mater* المنسوب إلى "ياكوبوني من تودي"، خلال تعليقه على النسخة الموسيقيّة لدفوراك: Fac ut ardeat cor meum in amando Christum Deum ut sibi complaceam (اجعل قلبي يضطرم حبّا بالمسيح الإله حتى يعجبه. «دع كلّ شيء يضطرم بي! كلّ شيء، كلّ شيء حتى آخر شعرة. دع كلّ شيء يضطرم بي، أنا غير المستحقّ، ولكن المخلوق للتسبيح: "أعبدك، إيّها المخلّص". يا للحرّيّة، يا لحرارة الاعتراف!»[30]

كما رأيتم عند دخول القاعة، لقد قرّرنا هذا العام أن نقترح عند كلّ دخول اقتباسًا قصيرًا لدون جوسّاني حول المقطع الموسيقيّ الذي نستمع إليه، كوسيلة تساعدنا على التماهي أكثر مع ما يحدث. والمقاطع الموسيقيّة التي نقترحها، كما تعلمون، ليست عشوائيّة، فقد عرّفنا دون جوسّاني بها واحدًا بعد الآخر مع مرور الوقت بسبب قدرتها على تسهيل التزامنا بالصمت. مَن نظر إلى رسومات كارافادجو عند استماعه إلى *Fac ut ardeat* قد اختبره ذلك. لن يكون الأمر على هذه الحال إذا كنّا شاردي الذهن أو بصدد استخدام الهاتف بدلا من الانسياق إلى ما هو أمامنا، فإعارة الانتباه هي من

[27] L. Giussani, *Una strana compagnia*, op. cit., pp. 34-35.
[28] L. Giussani, *Una strana compagnia*, op. cit., p. 35.
[29] L. Giussani in A. Savorana, *Vita di don Giussani*, op. cit., p. 413.
[30] L. Giussani, «La festa della fede», in *Spirto Gentil. Un invito all'ascolto della grande musica guidati da Luigi Giussani*, a cura di S. Chierici e S. Giampaolo, Bur, Milano 2011, p. 289.

أجل عدم الحدّ من مدى ما يحدث الآن.
لنأخذ على سبيل المثال ما أخبرنا به دون جوسّاني عن عمل قام به موتسارت، هو "القدّاس العظيم بمقام دو مينور"، والذي كثيرًا ما استمعنا إليه أثناء نشاطاتنا: «هذه الترنيمة الجميلة تساعدنا على الخشوع في صمتٍ ممتنّ، فتولد أو تنبت في القلب زهرة الـ "نعم" فيستطيع الإنسان أن يعمل، وأن يصبح معاونًا للخالق [...]: عاشقًا للخالق. كما كان الحال بالنسبة للسيّدة العذراء [...] حيث ملأت علاقة لا حدود لها قلبها ووقتها. إذا اخترق العمق الدينيّ لموسيقى موتسارت، وهي عبقريّة وهبها الروح القدس، قلوبنا، وحياتنا، بكلّ ما فيها من توتّرات وتناقضات وأتعاب، فسوف يكون جميلا كموسيقاه»[31].
أودّ معكم أن أدع موهبة عيش الصمت تربّيني بشكل متزايد، هذا الصمت بالتحديد، الذي يعني أن «تملأ قلبنا وعقلنا أهمُّ الأشياء»، والحضور الأكثر حسمًا في الحياة. «يتطابق الصمت [...] مع ما نسمّيه بالذاكرة». في هذه الأيّام التي سنعيش فيها سويّة، «ستستفيد الذاكرة من الموسيقى التي سنسمعها ومن اللوحات التي سنشاهدها [على الشاشات] ؛ فنتهيّأ لننظر، ونستمع، ونشعر بعقلنا وقلبنا ما يقترحه الله علينا بطريقة ما»[32]، لكي نترك الربّ يجرّنا ويتسحوذ علينا.
إنّ جميع المحاولات التي نقوم بها – اختيار موسيقى وأغانٍ وصور معيّنة – تهدف إلى تعلّم كيفية ترك مساحة لشخصٍ آخر، وهو السبب الكبير الوحيد الذي جلبنا إلى هنا اليوم.
ولذلك أذكّركم بأن تولوا اهتمامًا خاصّا بالصمت في هذه الأيّام، عند الانتقال من الفنادق وعند الدخول والخروج من القاعات. إنّ البادرة التي سنعيشها تعتمد على مساهمة كلّ واحدٍ منا، لذلك أطلب من أجلي ومن أجلنا جميعًا ألا نضيّع هذه الفرصة.

[31] L. Giussani, «Il divino incarnato», in *Spirto Gentil*..., op. cit., p. 55.
[32] L. Giussani, *Dare la vita per l'opera di un Altro*, Esercizi Spirituali della Fraternità di Comunione e Liberazione, Rimini 8-10 maggio 1992; suppl. a *CL-Litterae Communionis*, n. 6, 1992, p. 5.